لِمَ يكسب تنظيم «داعش»؟!

إعداد وترجمة: ليلى زيدان عبد الخالق

يضغط الحليف السعودي ـ الإسرائيلي والمحافظون الجدد على الرئيس أوباما لاستمرار الحرب العدائية ضدّ حكومة سورية العلمانية، على رغم المكاسب التي يحققها تنظيما «داعش» و«جبهة النصرة»، والتي ستقود إلى أزمة كارثية في الشرق الأوسط.

كتب دانيال لازار*:

لا يعتبر أيار شهراً مجيداً بالنسبة إلى الرئيس أوباما وفريقه السياسي. فسيطرة جيش تنظيم «داعش» على الرمادي في العراق في 15 أيار الجاري، يُعدّ من أبرز الانتكاسات التي يشهدها الجيش الأميركي منذ فييتنام، غير أن سقوط تدمر بعد خمسة أيام فقط جعل الأمور تزداد سوءاً. فهذه إدارة، بقيت ـ حتى الأمس القريب ـ تدّعي أنها ستقلب الطاولة وتربح معركتها ضدّ «الدولة الإسلامية».

أكد الجنرال لويد أوستن قائد القيادة المركزية الأميركية، أمام لجنة القوات المسلحة في مجلس النواب، أن «الدولة الإسلامية» والمعروفة أيضاً باسم «داعش»، بقيت لفترة معينة في موقع دفاعي وغير قادرة على إدارة عمليات كبرى، بينما أعلن نائب الرئيس الأميركي جو بايدن في نيسان الماضي أن زخم «داعش» في العراق وفي غيره من الأماكن قد توقف واتخذ مساراً عكسياً.

وبدا الرئيس الأميركي متفائلاً قبل أسابيع مضت، عندما أثبت عقب اجتماعه مع رئيس الوزراء العراقي حيدر العبادي بالقول: «نحن نحقق تقدماً جدّياً في دحر داعش عن الأراضي العراقية. وقد استرجعنا حوالى ربع الأراضي التي وقعت تحت سيطرة داعش، استطعنا القضاء على بنيتهم التحتية من خلال الضربات الجوية المركزة. وستتمكن قوات الأمن العراقية من إعادة بناء نفسها بقيادة رئيس الوزراء الحالي، وها هي هذه القوات تتجهز وتتسلّح وتعيد ترتيبها وتدريبها وانتشارها الاستراتيجي في البلاد».

هذا كان حتى نهاية الشهر الماضي. فقبل الرمادي، بدا أن بعض المحافظين، كالكاتب تشارلز كرواثامر في «واشنطن بوست»، وجون بولتون السفير الأميركي السابق لدى الأمم المتحدة، والسيناتور في ساوث كارولينا ليندسي غراهام، قد فقدوا القدرة على تحديد وجهات النظر بعيدة المدى، والتي أضحت وهمية. وكذلك، ظهر أوباما كالغريب مساء الثلاثاء الماضي حين أخبر «The Atlantic» أن انتصار «داعش» لا يشكل هزيمة لنا.

وتابع: «لا، لا أعتقد أننا نخسر». ثم أضاف: «ما من شك في حصول انتكاسة تكتيكية، على رغم أن الرمادي كانت عرضة للخطر منذ فترة طويلة، وذلك لأن القوات المقاتلة ليست قوات الأمن العراقية التي قمنا بتدريبها وتعزيزها». وكأن أوباما هنا، يشبه قبطان سفينة «تايتانيك»، إذا ما كان قد فكر لحظة بإخبار الركاب بأن شرخاً ما تعرّضت له السفينة تحت الماء وأنهم سيقومون بإصلاحه قريباً!!!

كذلك، لم تأت وجهة نظر اليميني المتطرف أقلّ هلوسة. فالسيناتور جاك ماكين، حاكم ولاية آريزونا، يلوم أوباما لعدم كونه أكثر صرامة وقساوة في إطاحة نظام الأسد في دمشق، كما لو كان إزالة قوة واحدة فعّالة ضدّ «داعش» سيسبّب الحزن والأسى ـ لا الغبطة والفرح ـ لأبي بكر البغدادي وجحافله.

واشتكى جون بوينر الناطق باسم البيت الأبيض الثلاثاء الماضي من «عدم امتلاكنا استراتيجية معينة ومحدّدة»، وقال: «أدعو الرئيس منذ ما يزيد على السنتين إلى ضرورة وضع استراتيجية شاملة للتعامل مع هذا التهديد الإرهابي المتفاقم. والواقع أن هذا الخطر يزداد ويتوسع إلى حدّ لم نعُد – نحن وحلفائنا – قادرون على القيام بشيء حياله. وعندما سُئل بوينر عن ماهية هذه الاستراتيجية التي يطالب بها، لم يكن بمقدوره الا أن يجيب: «إنها مسؤولية الرئيس». وبعبارة أخرى، فإن بوينر يُعدّ جاهلاً كالكثيرين غيره.

وفي الواقع، فإن مؤسسة السياسة الخارجية جاهلة بكاملها، تماماً كما اعتادت أن تكون عام 2003، عندما وافقت ـ وبالإجماع ـ على الغزو الكارثي للرئيس جورج دبليو بوش للعراق. وقد وضعت تحذيرات المراقبين والصحافيين والمحلّلين كل من الديمقراطيين والجمهوريين في حلقة مفرغة، بسبب رفضهم سماع الآراء التي نادت بضرورة عدم القيام بذلك.

أسباب الفشل

آخذين كل ما ذكرناه آنفاً بالاعتبار، سنستعرض وإياكم الأسباب الحقيقية لفشل الولايات المتحدة، واكتساب «داعش» المزيد من القوة.

السبب رقم 1:

فشل الرئيس أوباما في تحديد هوية العدوّ الأول – أهو «داعش» أم الرئيس بشار الأسد.

حتى لو أصرّ البيت الأبيض وأعلن نيته سحق «داعش»، فإن سياسة الولايات المتحدة هي في الواقع، ممزقة. يريد أوباما هزيمة «داعش» في العراق. غير أنه ليس متأكداً مما عليه فعله على المقلب الآخر، إذ يعتبر أن هذه الهزيمة في العراق ستكون مصدر قوّة وإفادة لنظام بشار في دمشق.

وهذه واحدة من السياسات الافتراضية، إذ لا يجرؤ أحد من الصحافيين «المسؤولين» على توجيه هذا السؤال. ومع ذلك، فقد نشرت «The Wall Street Journal» تقريراً في كانون الثاني الماضي مفاده أن «استراتيجية الولايات المتحدة مقيّدة ومتردّدة في ترجيح كفّة ميزان القوى تجاه الرئيس بشار الأسد»، بينما أضافت «The New York Times» الأربعاء الماضي، أن الولايات المتحدة قد قصفت عمداً أهدافاً لـ«داعش» فيمناطق خارجة عن رقابة الحكومة بهدف تجنب احتمال مساعدة قائد كان أوباما قد طالب الإطاحة به».

وبكلمات أخرى، كلّما زاد «داعش» من جهوده على مصارعة الأسد، كلّما أجّلت الولايات المتحدة الإسراع بالقضاء عليه (أي داعش)؛ فقط عندما يضع «داعش» نصب عينيه أهدافاً أخرى، قد تفكر الولايات المتحدة في التدخل ضدّه بجدّية. لكن هناك عدد من الأخطاء الفاضحة في هذه الاستراتيجية. إحداها أنها ساخرة بشكل مذهل وصاعق. وكأن المئات والآلاف من الأرواح البريئة التي تُزهق لا تبدو في أولويات اهتمامات الإدارة الأميركية، بل الأولوية هي لإسقاط نظام لا يتلاءم مع تطلعاتها ومصالحها في المنطقة!!!

لكن حتى هذه النتائج تعتبر هزيمة عسكرية ذاتية. فبالسماح لـ«داعش» بالسيطرة على الأراضي وإرساء حكمها فيها، يعني السماح له بالنمو والتجذّر. كذلك، فإن تضييق الخناق على الأسد بتهم امتلاك أسلحة دمار شامل، يشجّع «داعش» على التمدّد أكثر فأكثر. ونتيجة لذلك، فإن سورية الآن، هي مكانٌ يسهل فيه على «داعش» أن ينتظم، يخطط ويسعى إلى تحقيق أمنه وأمانه أكثر مما كان عليه في العراق، وذلك وفقاً لما ذكره مسؤول رفيع في وزارة الدفاع لـ«the Journal» والذي رفض الكشف عن اسمه.

النتيجة واحدة، فقد يكون «داعش» قادراً على إعادة تنظيم صفوفه ومستعداً لشنّ هجمات جديدة على الجانب الآخر من الحدود. وهذا الواقع لا يختلف عن ذلك الذي حصل في أفغانستان إبان الثمانينات، إذ ظنّت الولايات المتحدة أنه بإمكانها التلاعب والسيطرة على إرادة الأصوليين والجهاديين هناك. فقد أظهرت أحداث 11 أيلول في ما بعد، فداحة هذا الخطأ الذي ارتكبته.

«لا تزال الحكمة التقليدية في الشرق الأوسط تؤكد على أن الأسد لن يُهزم». هذا ما أعلنته صحيفة «The Guardian» البريطانية الخميس الماضي. لماذا لا تُمنح هذه الحكمة المزيد من الاحترام والدراسة في واشنطن. فإذا ذهب الأسد، فإن السيناريو الأكثر تصوراً أن يحتل «داعش» دمشق، وأن ترفرف أعلامه السوداء هناك. فأين الإيجابية من إمكانية حدوث ذلك، وكيف نتلقى الإجابة على تساؤلاتنا تلك؟

كيل السعودية بمكيالين

السبب رقم 2:

تحالف مكافحة «داعش» هو تحالف احتياليّ. لا يمكن أن يكون الحلفاء الذين استخدمهم أوباما في حربه ضدّ «داعش» أقلّ موثوقية. وقد فجّر بايدن هذا الواقع بإعلانه عن هذه الحقيقة أمام جمهوره في مدرسة «هافارد كينيدي» في تشرين الأول الماضي، حين قال: «إن أعظم المشاكل التي نواجهها في سورية، تنحصر في حلفائنا... السعوديين والإماراتيين وغيرهم، ما الذي يفعلونه؟ حلفاؤنا هؤلاء كانوا مهووسين بفكرة الإطاحة بنظام الأسد، وتحديداً إثارة حرب طائفية سنيّة – شيعية، لكن ما الذي أحرزوه؟ أنفقوا مئات ملايين الدولارات وعشرات آلاف الأطنان من الأسلحة العسكرية على كلّ من يقاتل ضدّ نظام الأسد، باستثناء الأشخاص الذين كانت تجنّدهم كلّ من جبهة النصرة والقاعدة من أماكن مختلفة في العالم».

وبالتالي، فإن السعودية ودول الخليج الأخرى، تموّل «داعش»، تسلّحه، وتهلل له، حتى أنها تولّت بنفسها مهام قيادة حملات الإبادة ضدّ الشيعة والإقليات الأخرى في المنطقة. وعلى رغم أن واشنطن تدّعي بأن دول الخليج هي حليفتها في حربها ضدّ «القاعدة»، فإن عبارة بايدن تعكس مدى لعب هذه الدول على جبهات متعددة: تقاتل «داعش»، وتدعمه خدمةً لمصالحها في الوقت عينه.

ولنكن واضحين، فإن تغييراً أصاب دول الخليج في الصميم، بعد تهديد البغدادي آل سعود. وهذا ما ينظر إليه بايدن على أنه: «وفجأة، الآن، ولا أريد أن أكون طريفاً جداً، استشعروا وجود الله... توقفت السعودية عن التمويل، وتسمح لهذه الجماعات بالتدرّب على أراضيها... يقطع القطريون إمداداتهم عن أكثر التنظيمات تطرفاً وتشدداً، أما الأتراك فيحاولون إغلاق حدودهم».

لكن، إذا ما توقف السعوديون عن تمويل «داعش»، فإنهم أيضاً يرفعون دعمهم عن «جبهة النصرة»، المسمّاة بـ«ذراع القاعدة» في سورية، وعن بعض صقورهم أمثال والتر راسل ميد من «The American Interest» ولينا الخطيب من «مركز كارنيغي» في الشرق الأوسط واللذين لا يكفان عن الجعجعة وإثارة النعرات.

لكن المحافظين بالغوا في وضع حدود وفروقات بين «النصرة» و«داعش»، التنظيمان المتقاتلان بشراسة، واللذان كانا منذ أشهر قليلة مضت ـ أصدقاء بما فيه الكفاية ـ لإطلاق حملة عدائية مشتركة في لبنان، ومن بعدها التعاون للاعتداء على مخيم اليرموك للاجئين الكائن في الضواحي الجنوبية لمدينة دمشق. ومما لا شك فيه، أنهما سيتعاونان مجدداً للقيام بهجمات وحشية جديدة في الأشهر القليلة المقبلة. فالسلفيون المتدفقون بالآلاف إلى سورية منذ عام 2011 متآلفون أحياناً، ومنقسمون أحياناً أخرى، ما يسبّب في تنوّع فصائلهم إلى حدّ فاقوا فيه أنواع وصنوف القهوة المقدّمة في مقاهي «ستار باكس».

علاوةً على ذلك، فإنه ليس من الواضح تماماً أن السعودية قد كفّت يدها عن التمويل. فالرقابة المالية في المملكة رخوة إلى حدّ بعيد، ووفقاً لما ذكره رئيس تحرير صحيفة «وول ستريت جورنال» السابق كارين إليوت، فإن «الفساد متفش بشكل مخيف، ونكاد نتعثر بالرشاوى في كلّ ركن من أركان الحسنات الصغيرة والكبيرة هناك». وقد أكد أحد الباحثين أن ما يقارب 30 إلى 40 في المئة من عائدات النفط تختفي في جيوب القطاع الخاص». أنظر كتاب أسعد أبو خليل: المعركة من أجل المملكة العربية السعودية: الملكية، الأصول، والقوة العالمية (نيويورك: سبع قصص، 2004، ص:88).

وكذلك، فإن المنظمات الدينية السعودية، كهيئة الإغاثة الإسلامية العالمية، ورابطة العالم المسلم، والجمعية العالمية للشباب المسلم، هي نفسها من تسنّ تلك القوانين. وعلى رغم أن السعوديين قد وعدوا مراراً بوقف تمويل هذه المنظمات، الا أن هيلاري كلينتون أبدت امتعاضها عبر مذكرة سرّيّة، من أن السعودية لم تلتزم بوعودها وأنها لا تزال تنتهج النهج عينه في مجال التمويل وذلك منذ عام 2009.

إنها وعود لا تُنفّذ. والواقع، أنه لدى السعوديين تاريخ طويل من عدم الوفاء بالوعود. فقد انقلبوا على أسامة بن لادن، بعدما بدأت «القاعدة» قصف الأهداف السعودية عام 2003. غير أنهم استمروا بالحفاظ على علاقات تواصلية معه من خلال قنوات في العائلة المالكة، وذلك بحسب شهادة زكريا الموسوي، أو ما يسمى بـ«مخطط هجمات القرن العشرين» (مواطن فرنسي أقر بأنه مذنب في محكمة اتحادية بالتآمر لقتل مواطنين من الولايات المتحدة كجزء من هجمات 11 أيلول)، والذي عمل طوال سنوات على جمع أموال المجموعة التي قادت الهجوم على مركز التجارة الحرّة... أي، إذا وصل المال السعودي إلى تنظيم «القاعدة»، فإنه من المحتمل أن يصل إلى يد «داعش»، على رغم ادّعاءات السعودية بعكس ذلك.

تجاهل الحرب الطائفية

السبب رقم 3: إن المشكلة الأساسية تتمثل في تعزيز الحرب الطائفية التي لا تقوم الولايات المتحدة بأيّ شيء لوقفها أو لتقييدها.

«داعش» يمثل الذراع السنيّة الضاربة المسبّبة للاضطرابات الكثيرة في الشرق الأوسط. اعتاد السعوديون التحدث عن «هلال شيعي» يمتدّ من دمشق إلى بغداد وطهران. لكن منذ بدء تسلّح الحوثيين الشيعة في اليمن، يستعر مشروع «القمر الشيعي الكامل» الذي يشمل صنعاء أيضاً.

إنه جنون العظمة يبلغ أعلى مستوياته، تردّ السعودية بإطلاق النار على اليمن، عبر شنّ هجمات جوية عنيفة ضدّ أراضيه وسكانه، تموّل الإرهاب السنيّ في سورية، ترسل قواتها إلى البحرين لسحق ثورتها الديمقراطية الشيعية، حيث يشكل هؤلاء أكثر من 70 في المئة من السكان، لكن عائلتها الحاكمة سنيّة، ومتورطة في حرب خطابية خطيرة للغاية مع إيران.

تصعّد المملكة السعودية أيضاً من ضغطها على أقليتها الشيعية التي تعدّ حوالى 15 في المئة من سكانها، والمتمركزة تحديداً في المقاطعات الشرقية الشاسعة للمملكة، والتي تضمّ الجزء الأكبر من مرتكزات النفط. وكان «داعش» قد تبنى التفجير الإنتحاري في مسجد شيعيّ في القطيف والذي ذهب ضحيته أكثر من 21 شخصاً، مع الإشارة إلى أن المسجد يقع على بعد أميال فقط من جسر البحرين. ومما لا شك فيه أن مئات الوهابيين المشجعين على القضاء التام على المذهب الشيعي شجّعوا عبر مواقع التواصل الاجتماعية حدوث هذا العمل.

وبالنتيجة، فإن التصدّع المذهبي يكبر ويتنامى، ويحيل إمكانية تحقيق العلمانية أمراً مستحيلاً. في الوقت الذي تدفع فيه الولايات المتحدة بغداد ناحية معالجة الصراع السني – الشيعي، وتفعل عكس ذلك تماماً في الرياض، إنها في النهاية ستارات من السياسات الأميركية الواضحة والصريحة والموالية حكماً للإسلام السني.

وبالعودة إلى تصريحات بايدن في مدرسة كنيدي، فإن السعودية وحلفاءها في الخليج، كانوا «عازمين على إطاحة حكم الأسد في دمشق وتبنّي الحرب السنيّة الشيعيّة بالوكالة»، قد يعتقد المرء أن الولايات المتحدة ستتراجع خطوة إلى الوراء وترفض التورط في حرب إبادة الأقليات الدينية في سورية، غير أنها ـ بدلاً من ذلك ـ سارت معهم في هذا المخطط الإجرامي جنباً إلى جنب.

لكن الآن، يكمل بايدن ما بدأ به، وينجح في إقناع السعوديين بوقف تمويل «داعش» وتبني مشروع إسقاط نظام الأسد بأنفسهم. ويؤكد نائب الرئيس الأميركي أنه من المفترض «تشكيل ائتلاف من الجيران السنّة... فأميركا لا تستطيع أن تقود – مرة أخرى – حرباً عدوانية ضدّ أمة مسلمة. هذه الحرب لا بدّ من أن يقودها السنّة أنفسهم». فللسنّة فقط المبررات الأخلاقية التي تخوّلهم حق التخلص من الحكومة الشيعية من خلال شنّ حرب شرسة ضدّها.

إذا، وبدلاً من إخماد الصراع الديني، فإن السياسات الأميركية تقوم بكل ما يلزم لإشعاله. تعتبر نتائج هذه الحروب بمثابة هبة سماوية لـ«داعش» و«النصرة» وللميليشيات الشيعية على حدّ سواء. وبغضّ النظر عن عدد القذائف التي تطلقها الولايات المتحدة وحلفائها، فإن «داعش» يمكن أن يزداد قوة وعنفاً كلما ازداد المناخ السياسي تدهوراً.

ورقة النفط

السبب رقم 4: النفط. تتنامى مسؤولية المملكة السعودية سياسياً. فقد أصبحت سياساتها سامة للغاية إلى حدّ تخلي حلفائها القدامى عنها. ترفض باكستان لعب دور في الهجوم المجنون الذي تقوده السعودية ضدّ اليمن، كذلك فعلت مصر.

ومثل هذا النظام المعزول والمشكوك في قدراته، فإن الحلّ الأمثل للولايات المتحدة يكون في تخفيف حدّة العلاقات مع الرياض، رفض التورّط في أيّ حرب دينية مع نظام الأسد، والعمل على إمكانية التوصل إلى تسوية مع سورية، تماماً كما تفعل مع إيران.

لكن، لا تستطيع الولايات المتحدة القيام بذلك، فالسعودية ليست بلداً اعتيادياً، وهي الحليف الأقدم لأميركا في الشرق الوسط؛ وتتربّع على قمة الدول الخمس التي تمتلك أكبر احتياطي للنفط في العالم، وهي الشريك المهيمن في مجلس دول التعاون الخليجي الست، وتمثل 20 في المئة من احتياطيّ النفط العالمي، و23 في المئة من احتياطيّ الغاز في العالم.

كذلك، فإن لدى المملكة لديها ما يقارب 700 مليار دولار من احتياطات العملة الأجنبية، وأكبر المعدّات العسكرية المستوردة ـ بغالبيتها الساحقة ـ من الولايات المتحدة. لذا، فالمملكة هي بلدٌ لا تستطيع الولايات المتحدة التخلي عنه، ولهذا، نجد أن الولايات المتحدة تنقاد وراء السعودية بشكل متزايد في سورية، واليمن، والبحرين وفي أيّ مكان آخر.

يمكننا جميعاً أن نتنبأ بالعواقب. ومع ذلك، فقد حذّرت وكالة استخبارات الدفاع منذ حوالى ثلاث سنوات، من أن السلفيين، الإخوان المسلمين، و«القاعدة»، سيشكلون القوة المهيمنة في الحركة المناهضة للأسد وداعميهم في المملكة السعودية وغيرها من الدول الخليجية، الساعين إلى إقامة معقل للسلفية في شرقي سورية.

وفي تقرير نشر في آب عام 2012، لاحظ الـ«DIA» أن الآثار المترتبة حول ما يجري في العراق، لا تحمد عقباها، مع الإشارة إلى تنامي قوة القاعدة في سورية «ما يخلق جواً مثالياً لفلول القاعدة في العراق، والعودة إلى جيوبهم القديمة في الموصل والرمادي، ويوفر زخماً متجدداً في ظلّ افتراض توحيد العمل الجهادي بين السنة في العراق وسورية وباقي المسلمين في العالم العربي ضدّ عدوّهم الوحيد: المنشقون ـ أي الشيعة».

ويضيف التقرير: «يمكن لداعش الإعلان عن قيام دولته من خلال إعلان الاتحاد مع غيره من المنظمات الإرهابية في العراق وسورية، الأمر الذي سيخلق تعقيدات كثيرة خصوصاً في ما يتعلق بتوحيد العراق وأراضيه».

يبدو أن الاستخبارات العسكرية تلعب لعبة المتناقضات. ومع ذلك، فإن البيت الأبيض يستمرّ بالضغط. فهو مضطرٌّ إلى الاعتماد أكثر على حلفائه السعوديين، إذ لم تجد الإمبراطورية الأميركية أمامها بديلاً عن الرياض للدخول معها في لعبة الثقوب والحفر. على أمل ألا تثبت العواقب أنها ستكون وخيمة جداً. وما من شكٍ في أنها كذلك.

* دانيال لازار، مؤلف له عدد من الكتب بما فيها: «الجمهورية المشلولة: كيف يشلّ الدستور الديمقراطية» الصادر من «هاركورت برس».